المجلة الجزائرية للبحوث و الدراسات التاريخية المتوسطية–العدد الثاني– شتاء1436 هـ–2015م
the Algerian journal of Researches and Mediterranean historical studies

تداعيات وباء منتصف القرن الثامن الهجري
على الحياة الفكرية في مملكة غرناطة

د .يماني رشيد –قسم العلوم الإنسانية–
كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية
–جامعة تلمسان–

Abstract.

It is well known that the historical writings about the demographic and health history of Andalusia is still a virgin, and that most of the studies have focused on the political, military and even cultural reality of intellectual, economic, social, physical and technical aspects, but the writing in the fragmented history, starting from the segment to reach all through the questioning biographies and virtues and excursions to learn all the crypts and the completion of what is missing these studies remain incomplete.

Based on this, we chose to look at many aspects of the mysteries of social, demographic, health and even intellectual reality of Andalusia in the middle of the eighteenth century, which coincided with the invasion of the epidemic on this freese and research in the private reflections intellectual.

من المعروف أن الكتابات التاريخية حول التاريخ الديموغرافي والصحي لبلاد الأندلس لا يزال بكرا ، وأن معظم الدراسات انصبت حول الواقع السياسي والعسكري وحتى الحضاري بجوانبه الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والفنية، إلا أن الكتابة في التاريخ المفتت والانطلاق من الجزء للوصول إلى الكل من خلال استنطاق كتب التراجم والمناقب والرحلات لمعرفة كل الخبايا واستكمال ما ينقص هذه الدراسات يبقى ناقصا .

انطلاقا من ذلك آثرنا أن نبحث في جوانب عديدة من خبايا الواقع الاجتماعي والديموغرافي والصحي وحتى الفكري للأندلس في منتصف القرن الثامن الهجري الذي صادف اجتياح الوباء على هذا الصقع والبحث في انعكاساته الفكرية خاصة .

تتفق الروايات والمصادر التاريخية المتعلقة بتاريخ الاندلس بما فيها الأجنبية على أنّه مند تولية أبو الحجاج يوسف الأول السلطة في دولة بني نصر [1] بدأت معه ملامح العصر الذهبي للمملكة في شتى المجالات السياسية فعقد جملة من الاتفاقيات مع الممالك النصرانية الأسبانية بهدف الاستقرار ، مدعما ركائز الاقتصاد خاصة في الثغور الساحلية بتشجيع التجارة وتأدية دور الوسيط التجاري ، وإنشاء المصانع[2]، حتى جاء في رثاءه قول ابن الخطيب:

تبكي عليك مصانع شهدتها بيض كما تبكي الهديل حمام[3]

إضافة إلى ذلك إسهاماته الفكرية والحضارية بتأسيسه المدرسة اليوسفية ، أو النصرية في 750هـ[4] في غرناطة ، بيد أن ما يقابل هذا التاريخ في الأندلس – أسود سواد الظاهرة التي عرفتها مدن المملكة النصرية كغرناطة ومالقة والمرية وثغور أخرى كوادي آش ورندة وبلش ، حيث في عهده جرى الوباء الكبير الذي اجتاح المنطقة في 749هـ/1348م حتى سنة 750هـ/ 1349م[5] .

انطلاقا من هذه الملاحظات المصدرية سنحاول تناول الأحداث الطبيعية التي أعاقت الحضارة الأندلسية كظاهرة الأوبئة والجوائح خلال حكم بني نصر في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي، ، وتسهيلا لمأمورية ذلك نحاول تعقب الأسئلة التالية :

– هل كانت المملكة النصرية في منأى عن الأوبئة ؟

–ما هي النتائج التي تمخضت عن هذه الكوارث ؟

–ما تأثيرات الأوبئة على الحياة الفكرية الغرناطية ؟

وانطلاقا من الرصد البيوغرافي للعلماء من خلال كتب التراجم والفهارس والبرامج نسعى إلى تعقب أهم تداعيات هذه الأمراض على الإنتاج الفكري الغرناطي وإحصاء وتعريف بأهم أعلام المملكة الغرناطية الذين تأثروا بشكل أو بآخر من هذا الوباء .

أما الوباء[6] فهو كل مرض عام، يحدث بصورة سريعة، ويصيب أعدادا هائلة من جميع الأعمار والأجناس ، بينما الطاعون هو مرض وبائي سريع الانتشار مسببا الموت الجماعي[7].

يُعد وباء الطاعون من أشد الجوائح الطبيعية ، ويُعرف بدوراته خلال عقد أو أكثر [8] ، وتُشير الدراسات أن طاعون جوستنيان في الحوض المتوسطي كان من أشد الجوائح فتكا للبشرية في القرن السادس الميلادي[9].

أسهب المؤرخون في وصف الوباء ومدى انتشاره وتأثيره في العالم وعرّفوه بتسميات عديدة: كالطاعون الجارف[10]، والطاعون الأعظم[11]، والطاعون العام [12] والموت الأسود[13]، والطاعون الأسود [14] أو الفصل الكبير [15] وسنة الفناء[16] ، والموتان[17]...

ماجت المصادر المعاصرة لهذا الحدث بالتعريف بهذا الوباء وذكر انتشاره وآثاره المختلفة ، فتتفق كلها على أن ظهوره كان بأواسط بآسيا أو يما يعرف ببلاد الخلط [18] ، ثم انتقل ليكتسح البحر المتوسط فاجتاح جزيرة صقلية منذ747هـ/ 1347م فإيطاليا، والمغرب الإسلامي وشبه الجزيرة الأيبيرية وفرنسا ابتداء من748هـ / 1348م[19].

جاء في قول ابن خلدون الذي عايش الوباء وفقد والده عند حلوله في افريقية :"هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم "[20]، وبيّن ابن ثغري بردي عالمية هذا الوباء بقوله :"عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً،جميع أجناس بني آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر،

وطير السماء، ووحش البر"[21] ، وقال فيه السخاوي:" ولم يُعهد نظيره فيما مضى ، فإنه طبق شرق الأرض وغربها، ووصل حتى مكة المشرفة ، وما سلم منه سوى طيبة"[22].

إن من أهم أسباب انتشار هذا الوباء هي قنوات التواصل كالحروب والتجارة والرحلات والهجرة ، ولعل حركة التجارة العالمية وخاصة عن طريق السفن التجارية الجنوية[23]، كانت هي أكثر العوامل بروزا، حتى كانت المرية "فرضة غرناطة" من أكثر المدن الأندلسية ضررا من جراء هذا. وقد كانت بدايتُه بها في فاتح جوان 1348م ما يقابل أوائل ربيع الأول من سنة 749هـ حيث فتك بأعداد كثيرة خاصة في الأحياء الفقيرة حتى وصل عددهم إلى سبعين ضحية يومياً[24].

كما يصف لنا القاضي النباهي في كتابه المرقبة العليا جسامة هذا الوباء عند حديثه عن جنازة أحد أعلام مالقة وهو ابن برطال أبو جعفر أحمد بن علي الأموي أن الوباء قد جرّ معه" ركب من الأموات يزيد عن الألف "من كل الفئات والأجناس إلى مقابر المدينة[25].

وتبرز المصادر ذلك على أنها لم تصب كل الأندلس الإسلامية كأحواز غرناطة ومدينة مالقة مثلا، وقد بيّن ابن ثغري بردي بدقة كيف انتشر هذا الوباء حتى وصل إلى الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي بقوله: "...وعم الموت أهل جزيرة الأندلس ، إلا مدينة غرناطة ، فإنهم نجوا ... وعم الموتان إفريقية بأسرها،جبالها وصحاريها ومدنها..."[26].

لكن على عكس ما نلاحظه من هذه القراءة للدراسات الأجنبية والعربية فإننا نلاحظ أن حتى أعيان وأعلام هذه المدن التي سلمت من الوباء كان لها ضحايا كثر، وجاءت على قلم عدد من المصادر التاريخية وكتب الرحلات ولعل أشهرها الرحالة الطنجي ابن بطوطة الذي عاصر الوباء وزار عدد من المدن التي انتشر بها هذا المرض وقد فقد فيه والدته بل كانت عودته من رحلته الأولى متزامنة معه .

يبدو أن المصادر الأندلسية والمغربية قد أطنبت في ذكر الوباء غرضا لا عرضا، مُشيرة إلى أسبابه المناخية والفلكية والبشرية وحتى السياسية ، ذاكرة آثاره وسُبل الوقاية منه ؛ وقد أشارت إليه منذ بداياته حتى ألفت فيه أرجوزات ومؤلفات طبية[27]. كما أسهبت في ذكر أسبابه المتعددة والتي أغلبيتها تُرجعها على الظاهرة الفلكية والمناخية ، فهذا ذو العمرين ابن الخطيب[28] يردّه إلى التأثير الفلكي فيقول:" له سبب أقصى وهو الأمور الفلكية ، وأدنى هو فساد الهواء الخاص بمعل ظهوره "[29] ، وأما شاهد الوباء في المرية ابن خاتمة الأنصاري فألّف في الطاعون وشرح من خلالها انتقال عدوى الوباء وتأثيرها على الإنسان[30].

إن جسامة هذا الوباء في الأندلس كان لها تأثيرا واضحا ليس على الأحوال الاقتصادية والسياسية، والخسائر البشرية فحسب بل على الإنتاج الفكري، حيث تعج كتب التراجم المختلفة بالعلماء ضحايا الوباء شهداء الطاعون والتي من ورائها كفت أيديهم عن الإبداع العلمي؛ ولعل ما استقيناه من تراجم النباهي في وفاة ابن برطال أنه عند

دفنه دفن إلى جانبه وفي نفس اليوم عدد آخر من أعلام مدينته مالقة ولعل أهمهم المقرئ الزاهد أبو عبد الله أحمد المعروف بالقطان، والواعظ أبو القاسم بن يحيى بن درهم[31].

برزت الأزمات الاقتصادية والآفات الاجتماعية، وتدهورت الأوضاع بتدني المستوى المعيشي والحرفي ونقص التعاملات التجارية نتيجة التخوف من انتشار العدوى [32]، كما اضطربت الأحوال الأمنية في المملكة النصرية بانتشار الثورات الداخلية والفتن ، وتزايد وتيرة الاسترداد النصراني، كما أضحت بعض الثغور الساحلية موطنا لإيواء قراصنة البحر[33].

قد لا يصدق القارئ لضحايا الوباء في المصادر المعاصرة له سواء في بلاد المشرق[34] أو أوربا[35] وحتى بلاد المغرب الإسلامي بما فيها الأندلس [36]حيث تشير إلى أعداد هائلة من عامة الشعب [37] مما قد يعطينا نظرة عن عدد العلماء الشهداء من جراء هذا الوباء ، ولعلنا نقف أمام أهم دراسة عدت لنا العلماء المتوفون من جراء هذا الوباء والتي قدمتها الأستاذة الأسبانية ماريا إيزابيل كاليرو سيكال[38].

يمدنا ابن الخطيب بوصف عن ميتة ابن فرتون الأنصاري وسنة وفاته بل وحدد لنا التاريخ الكامل في ذلك بقوله :" نفث دم الطاعون ، صلى الجمعة ظهرًا وقد لزم الفراش ومات مستقبل القبلة على أتم وجوه التأهب ، سابع شوال من عام سبعمائة وخمسين "[39].

إن مثل هذه الإشارات التي استقيناها من كتب التراجم تدل عل أن هذا الوباء قد طال أمده ببلاد الأندلس ودام قرابة السنتين (749 هـ –750 هـ) ، ولعل أن العالم الطبيب التاجر ابن عبد البر أحمد بن علي بن عبد البر الخولاني[40] وهو من أبناء غرناطة قد توفي بالطاعون من جراء عدوى تكون قد أصابته نتيجة احترافه للطب حيث قعد يداوي المرضى، أو نتيجة احتكاكه بالتجار بحكم أشغاله الإضافية في مجال التجارة خاصة وأنه توفي خارج الديار الأندلسية بتونس.

يبدو أن هذا الوباء قد زار أغلب البيوتات الكبرى الأندلسية ومنها بيت بني الحكيم اللخمي وعلى رأسهم أبو القاسم محمد بن محمد بن محمد بن الحكيم اللخمي [41] الذي كان موسوعيا بنبوغه في علوم عديدة وتوفي في وقيعة الطاعون حين كان قاضيًا سنة 750هـ. كما أهلك محمد بن عبد الله بن منظور القيسي وأصل بيته من اشبيلية ، وانتقلوا إلى مالقة أين أضحى بقصبتها قاضيا وخطيبا ، وهو من ألف كتاب "البرهان والدليل في خواص سور التنزيل " ، ولم يسلم صاحب التآليف العديدة العالم المصنف سعد بن أحمد بن ليون التجيبي المكنى بأبي عثمان من هذا الوباء ، وقد كان من أجل علماء الأندلس وأبرعهم تأليفا، وله نحو ثلاثين تأليفا في الحديث والفرائض والمساحة[42] .

لم يكن علماء المرية أو غرناطة الوحيدين الذين مسهم الوباء الجارف سنتي 749–750هـ بل مست حتى الثغور والحواضر الغرناطية المتبقية كمالقة والجزيرة الخضراء ورندة بحكم أن العلماء المتوفون في الوقيعة كانت متباينة أصولهم. وفي المقابل لم يسلم العلماء الوافدون من العدوة المغربية على الحواضر الأندلسية من ذلك حيث كانت لهم نهاية بهذا الصقع ؛ فقد انتهت إيام الفلكي والطبيب أبي زكرياء يحي بن علي بن أحمد بن علي القيسي سنة

750هـ ببلاد الأندلس[43]،ولقي الأستاذ الخطيب محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن أبي بكر بن خميس الأنصاري حتفه في وقيعة الطاعون بالجزيرة الخضراء كذلك سنة 750هـ[44].والأمر نفسه ينطبق على الوافد الشاعر القاضي أبي عبد الله بن خميس التلمساني الذي توفي بالطاعون العام بالمرية في سنة750هـ[45]. وفي مقابل ذلك وجد من الأندلسيين الراحلين الذين توفوا خارج ديارهم شأن محمد بن عبد الله بن لب المُري النحوي المتوفى في رمضان من سنة 749هـ ويُكنى ابن الصائغ، ارتحل إلى المشرق في حدود 720 هـ فلم يتجاوز القاهرة ،وبمدرستها الصالحية أقرأ العربية والنحو[46].

وبالتالي فإن هذا الوباء قد جعل حدا لعدد من العلماء الأجلاء بالثغر الأندلسي ومن الوافدين إليه ، بل وحدّ من الإنتاج الفكري المتنوع للعديد منهم .

وكان قضاء الله في وفاة الرحالة الأديب والقاضي أبي البركات البلفيقي محمد ابن الحاج بعدما مرّ الطاعون حيث سلم منه وكانت له مواقف آنذاك من هذا الوباء الفتاك .وقد كانت كانت له رحلتين خارج الأندلس آب بعدهما قافلا إلى بلده للتعليم والقضاء رجع واستقر ببلده ألمرية في وقت عصيب اشتد فيه الوباء الفتاك سنة 749هـ حتى جاء في قوله : وبقيت مقيمًا بها لما اشتهر من وقوع الوباء بألمرية ثم أعدت إلى القضاء والخطابة بألمرية وكتب بذلك في أوايل رجب عام تسعة وأربعين ثم صرف عنها ثم عاد سنة ست وخمسين[47].

والأمر نفسه انطبق على العالم أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الهاشمي الطنجالي[48]ذوي الأصالة والجلالة من أهله الذي توفى بعده سنة 753هـ وقد صادفه في ذلك الوباء العام الذي أصاب المنطقة في منتصف القرن الثامن الهجري وتمنع منه ، إلا أنه كان من الأسباب المؤثرة في استقالة القاضي أبي عبد الله وطلب استعفاءه من الحكم، "خاصة بعد ترادف النوازل المشتبهات عليه بعد انصراف الطاعون، واختلاف من عاش بعده من الفقهاء، عند الأخذ معهم فيما يشكل عليه من المسائل وكان يكره مخالفة من جملتهم، ويحذر موافقة بعضهم " [49] ؛ إلا أن قريبه أبا جعفر أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي لم يسلم منه سنة750 هـ رغم مهارته في الطب[50] .

جدول يوضح شهداء الطاعون سنة 750هـ.

العالم	المدينةأو المنطقة	العبارة الدالة على وفاته في وقيعة الطاعون	المهام– العلوم	المصدر
أبو زكرياء يحي بن علي بن أحمد بن علي القيسي ابن الزرقالة	ألمرية	توفي بالطاعون بالمرية يوم الثلاثاء 3 محرم 750هـ.	الفلك والطب .	ابن القاضي، درة ، ج3 ، ص 330 ، تر:1446.
أبو القاسم محمد بن محمد بن محمد بن الحكيم اللخمي	رندة	أعبط في وقيعة الطاعون ...فكانت فيه الفجيعة عظيمة .	الوزارة – العلوم النقلية والعقلية .	ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج2، ص266.

		17 ربيع الثاني 750هـ		
سعد بن أحمد بن ليون التجيبي.	المرية – لورقة	توفي بالمرية بالطاعون العام إثر صلاة العصر . السبت 14 جمادى الثانية 750هـ	التأليف – الحديث والفرائض والمساحة .	التمبكتي،نيل ،ج1،ص 201– ابن القاضي، درة، ج3،ص 292 .
محمد بن عبد الله ابن فرتون الأنصاري	مالقة – بطليوس	نفث دم الطاعون . 7 شوال 750هـ	الأشغال السلطانية –الرواية– الرحلة .	ابن الخطيب ،الإحاطة ،ج3، ص227.
أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي أبو جعفر .	لوشة	نجمت به بواكي الوباء الأكبر صدر عام 750هـ بعد تمنع منه وإبانة .	صناعة الطب – الشعر – القضاء	النباهي ،المرقبة، ص155–ابن حجر،الدرر،ج1، ص 183 ، تر: 473 – Miguel Jiménez P ,op cit,p165.
أحمد بن محمد بن علي الأموي أبو جعفر ابن برطال	حارة البحر شرقي مالقة	توفي بها (مالقة) أيام الطاعون الكبير . الجمعة 5 صفر 750هـ .	القضاء والخطابة ، الحديث–التوثيق .	المقري، نفح، ج3، ص449 – ابن الخطيب، الإحاطة،ج 1،ص 171 – النباهي، المرقبة، ص148 .
عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي (ت 750هـ) ابن المُرابع	بلّش	وفاته في كاينة الطاعون ببلده . أواخر 750هـ	النظم والنثر – الأدب والمقامات	ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج3، ص421–المقري ، نفح ،ج6، ص 102،– ص 255– العبادي،

				مقامة العيد ، صحيفة الدراسات الأندلسية، مدريد،مج 2 ،ع1–2، 1954ص159.
علي بن محمد بن علي البنا الوادي آشي أبو الحسن (ت 751هـ)	وادي آش	توفي معتبطا في الطاعون ولم يبلغ الثلاثين . 4 شعبان 750هـ .	ديوان الإنشاء – نظم وأدب وشعر .	ابن الخطيب ،الإحاطة،ج4 ، ص 167 – المقري، نفح ،ج6 ،ص 128 .
علي بن يحيى الفازري المالقي ابن البربري (ت 750هـ)	مالقة	وفاته بمالقة بالطاعون عام 750هـ.	الخط ، الشعر .	المقري، نفح، ج6 ، ص133 – ابن الخطيب ، الإحاطة،ج4 ،ص 194 .
محمد بن أبي الجيش محارب الصريحي أبو عبد الله (ت 750هـ)	مالقة، حصن يسر ، مرسية	توفي بمالقة في كاينة الطاعون الأعظم، في أخريات ربيع الآخر 750هـ بعد أن تصدق بمال كثير ...	الفقه والأصول، – الرياضيات – الخطابة –الإقراء– العلوم العقلية .	ابن الخطيب ،الإحاطة، ج3، ص78– ابن حجر ، الدرر، ج3، ص374 .
محمد بن أحمد بن جعفر بن عبد الحق بن حقاف السلمي القونجي(ت750هـ)	قونجة	وفاته في الوباء العام . الإثنين 20 شعبان 750هـ .	التصوف – التأليف" الأنوار في المخاطبة والأسرار " .	ابن الخطيب، الإحاطة،ج3، ص234 .
محمد بن أحمد بن قاسم الأمي القطان أبو عبد الله (ت 750هـ)	مالقة – جبل فاره	توفي شهيد الطاعون . الاربعاء 4 صفر 750هـ ... ودهم الوباء، فبذلوا من الأموال في أبواب البر	الزهد والورع– المجالس العلمية – الفقه– علم الكلام .	ابن الخطيب، الإحاطة ، ج3، ص241.

		والصدقة، ما لا يأخذه الحصر ولا يدركه الإحصاء		
محمد بن علي السكوني الأندلسي ابن لؤلؤة (ت 750هـ)	من أهل حصن قمارش	توفي المذكور بالطاعون سنة 750 هـ .	– الخطابة الشعر – الزهد	المقري، نفح، ج5،ص 516.
محمد بن علي بن محمد العبدري ابن اليتيم (ت 750هـ)	مالقة	وفاته في وقيعة الطاعون العام. آخر صفر 750هـ .	التدريس لمدة ثلاثين سنة غاب فيها مرتين – الحديث والتفسير– الطب .	ابن الخطيب ،الإحاطة ، ج3، ص97– الكتيبة، ص 59 – أوصاف، ص 33 .
محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن أبي بكر بن خميس الأنصاري (ت 750هـ)	الجزيرة الخضراء	توفي في الطاعون بسبتة . آخر جمادى 2 سنة 750هـ	الفقه – القراءات الخطابة – الإقراء والتعليم – التأليف " النفحة الأرجية في الغزوة المرجية "	ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3، ص184 .

من خلال الرصد البيوغرافي لأعلام الأندلس المتوفين في منتصف القرن الثامن الهجري وبالضبط سنتي 749 هـ، و750هـ عثرنا على جملة من الأعلام اللذين لم تحدد سبب وفاتهم في كتب التراجم ، وإذا استطعنا أن نهتدي إلى تحديد تاريخ وفاة بعض الأعلام الآخرين من أهل غرناطة ممن لم تذكر أسباب وفاتهم إلا أننا نبقى نتساءل عنهم هل تعرضوا للوباء وماتوا من جراءه أم لا ؟ بالرغم من أننا وقفنا على عدة اعتبارات أهمها :

– أن ابن الخطيب أورد في فقرات متلاحقة لكل الأعلام المتوفين من جراء وباء الطاعون وقد خصه المحقق محمد عنان في قسمه الثالث من ذلك ، ووجدت هذه الأعلام ضمنهم متتالية إلا أننا لم نستطع الجزم نهائيا كون أن المحقق قد يكون أعاد ترتيبها خاصة وأننا لم نطلع على النسخة المخطوطة .

– ثانيا ولعله العامل الرئيسي في الترجيح ويتمثل في كون أن تاريخ وفاتهم لم تحدد فقط بالسنة وإنما كاملة، ولعل أغلبهم كانت في شهر شوال 749هـ ، وهو تاريخ يأتي بعد اجتياح الوباء للمنطقة . فهل هذا يعني أن الوباء لم يمس هؤلاء الأعلام ؟ أم أن غرناطة قد تأخر عنها الطاعون الذي ضرب ألمرية في بادئ الأمر في أوائل ربيع الأول من سنة 749هـ ثم انتقل إليها لاحقا لكن بعد عيد الفطر من سنة 749هـ.

ومقصدنا في ذلك من هؤلاء الأعلام ابن الجياب علي بن محمد بن سليمان الأنصاري أبو الحسن صاحب الرواية والعلوم ورئيس الأشغال السلطانية الذي وافته المنية يوم الأربعاء 23 شوال 749هـ ، حيث لم يورد لنا تلميذه ونائبه في الوزارة ابن الخطيب عن وفاته شيئا متعلقا بالوباء رغم أنه توفي بغرناطة وكانت "جنازته آخذة نهاية الاحتفال ،

وحضرها السلطان ومن دونه" [51]. إضافة إلى محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الصناع أبو عبد الله الزاهد من أهل البادية الغرناطية صاحب الرحلات العلمية الداخلية، ولم تذكر المصادر وفاته في وباء الطاعون واكتفت بذكر وفاته بتاريخ 7 شوال 749هـ ، لكن إذا قارناها مع الإطار الزماني للوباء بالأندلس ووفاة بعض العلماء في مثل هذا التاريخ أمكن لنا أن نحكم على سبب وفاته أنها كانت في الطاعون العام ، في حين وبكل موضوعية لا يمكن لأصحاب التراجم المتمرسين في هذا اللون الذي اشتهرت به الأندلس أن يتناسوا حدثا هاما كهذا وخاصة منهم ابن الخطيب صاحب البرامج والتراجم العديدة والذي عاصر أغلبهم وكان طالبا لأغلبهم [52]. ونفس الأمر ينطبق على محمد بن حسنون الحميري أبو عبد الله الإمام الزاهد صاحب الحرف اليدوية، أصله من مرسية وسكن غرناطة ، يقول عنه ابن الخطيب أنه كان حيا سنة 750هـ ، وعلى الأغلب أنه توفي في هذا العام ، إلا أننا لا نستطيع الجزم بأن وفاته كانت بسبب الطاعون[53].

لا يمكننا الإلمام بكل المتوفين من جراء وباء الطاعون من الأعلام ببلاد الأندلس في منتصف القرن الثامن الهجري من خلال هذا الرصد البيوغرافي ، واكتفينا بذكر كل النماذج التي اهتدينا إليها ؛ لكن البارز في الأمر أن هذا الوباء قد فتك بالعديد ممن أشارت إليه كتب التراجم بشكل عام سواء كانت مشرقية أو مغربية أو أندلسية محضة . ومن جانب آخر يبدو أن التنوع جلي ما بين عدد المتوفين من العلماء في المدن الرئيسية كغرناطة ومالقة مقارنة بالثغور الأخرى، وبين الأصليين والوافدين إلى السلطنة النصرية ، وبين الكهول منهم والشباب حيث وجد من توفي في مقتبل العمر. إضافة إلى تأثر عدد من الأفراد بالوباء من بيت واحد ، كما حصد الوباء من المؤلفين والأطباء وولاة الحكم من العلماء المقربين إلى السلطة عددا لا يُستهان به .

اهتم أهل الأندلس بصناعة الطب لمواجهة مثل هذه الظواهر حيث اختصت كتب التراجم والطبقات ومتون ما وصلنا من مصنفات في الطب وعلوم الطبيعة من المعلومات حول الاهتمام الأندلسي بالطب عموما [54]، ومن عناوين المصنفات الطبية المختلفة ما يفصح عن الحجم الحقيقي للتراث الطبي المتمثل في العدد الهائل مما كتب من تقارير الطب النافعة الأرجوزات والرسائل والنواذر والنسخ[55].

تعددت المؤلفات في ذكر وباء القرن الثامن الهجري ودور المسلمين في وضع حد لانتشاره بالوقاية والاحتياط منه [56]، ويذهب ابن خلدون الذي عاصر هذا الوباء بعد أن شخص الأسباب بطرح طرق الوقاية منه بقوله :" ولهذا تبين في موضعه في الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالط الحيوانات..."[57].

أما أهم ما ألفه الأندلسيون فاستأثر به ابن الخطيب الطبيب [58] منها في الوباء :"مقنعة السائل عن المرض الهائل " والذي يصف فيها ظروف ظهور الوباء وانتشاره، وأعراضه الأولى وسبل الاحتياط منه [59]، وألف ابن خاتمة الأنصاري " تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد " [60]، بينما خط أبو عمرو محمد بن أبي بكر محمد بن منظور القيسي[61] "وصية الناصح الأود في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد " [62]؛ حيث تناول في ثلاثة فصول

النصوص والأحاديث المتعلقة بالوقاية من الوباء، ومسائل العدوى [63]. أما طبيب الدار السلطانية بغرناطة أبو عبد الله محمد بن علي اللخمي الشقوري (و 727 هـ) [64]والذي أحرز شهرة واسعة في معالجة المرضى فقد ألف في الطب عموما[65]، وفي الوباء على وجه الخصوص" تحقيق النبأ عن أمر الوباء" المعروفة باسم النصيحة والذي تناول في جزئه الأول الهواء ،وفي الثاني إصلاح الأبدان والدواء[66].

كما ألف محمد بن محمد بن جعفر بن مشتمل الأسلمي البلياني (ت 764هـ) – الذي كان موسوعيا وتولى القضاء في عدة حواضر– " إصلاح النية في المسلة الطاعونية "[67] .

الخلاصة:

عموما ما يمكن أن نخلص إليه في مثل هذه الدراسات ذات الأبعاد الصحية والاجتماعية والفكرية وحتى الديموغرافية أنها قد أتاحت لنا فرصة التعريف بحياة المملكة النصرية في منتصف القرن الثامن الهجري عند حدوث أبرز كارثة جسدت علاقة الإنسان بالطبيعة؛ فقد شكل الوباء نقطة سوداء في تاريخ المملكة النصرية وفترة حكم أبرز سلاطينها وبالتالي أثر بشكل أو بآخر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

أما من الجانب السوسيوثقافي فإن الوباء فعلا قد أثر في محن ونكبات العديد من العلماء البارزين حتى أننا أحصينا عددا لا يستهان به من هؤلاء لقوا حتفهم من جراء ذلك ، إلا أنهم في المقابل لم تقف الفئة المثقفة مكتوفة الأيدي بل عملت على التحسيس والتفكير في توعية مجتمعاتها المنغمسة في التحديات الاجتماعية والأمنية من خلال إنتاجها الفكري الهادف وسيادة ثقافة التضامن والتكافل الاجتماعي بنزول معظم علماء وزهاد وأدباء وأطباء وفقهاء ذوي البيوتات النبيهة وذوي المكانة في التقسيم الطبقي إلى العامة والسعي لمساعدتهم وتدبير أحوالهم.

كما كان لهذا النوع من الكوارث الطبيعية أثرا عميقا في ذهنيات المجتمع الأندلسي سواء من خلال زيادة وتيرة التصوف الذي اكتسح النسيج المجتمعي ، أو ببروز السلوكات والمعتقدات الباطلة ورواج التقاليد المتعلقة بالظواهر الفلكية والروحانية

الهوامش:

[1] – بنو نصر يرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة بن الصامت الخزرجي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ينظر: ابن عبد البر القرطبي ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تخ: عادل مرشد ، دار الإعلام ،ط 1،عمان 2002 ،ص469 – ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 2،ص 93. عنان،نهاية الأندلس ،ص 39 ، وقد اعترفت الدراسات الاستشراقية بفترة الرخاء و الازدهار في دولة بني نصر على عهد أبي الحجاج يوسف الأول ، ينظر على سبيل المثال : **Pascual de Gayganos, The History of Mohammedan dynasties in Spain , vol 2,London 1843 v2,p356.** – وأبو الحجاج هو السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج المعروف ،تولى الحكم صغير السن (15 سنة) بعد مقتل أخيه في ظاهر الجزيرة الخضراء في 734هـ ،توفي قتيلا في عيد الفطر (أول شوال) سنة 755هـ، وفي رثائه يقول ابن الخطيب :

تولى شهيدا ساجدا في صلاته أصيل التقى رطب اللسان من الذكر

ينظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج4 ، ص317 ، 338 – ابن الخطيب ، اللمحة ، ص97

[2] – عقد أبو الحجاج يوسف الأول اتفاق سلام مع قشتالة سنة 734هـ/1334 م،ثم تبعته جملة من الاتفاقيات مع الممالك النصرانية الأسبانية عن فحوى هذه الاتفاقيات وأطرها الزمانية ينظر:ابن الخطيب،الكناسة ،ص 132 وما يليها– , Atallah p292 Dhina ,les états وعن أهم المبادلات التجارية والمنشآت ينظر: Atallah Dhina ,OP CIT ,p392,393 Rachel Arie ,p361

[3] – ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص 337 .

[4] – وبالضبط في محرم 750هـ / 22 مارس إلى 20 أبريل 1349 ، ينظر : Lucien Golvin , Quelques réflexions sur la fondation d'une madrasa a Grenade en 750=1349,Actas XII , congréso de la U.E.A.I, Malaga 1984 ,Huertaz Madrid 1986,p305

[5] – يبدو أن مدينة المرية اجتاحتها الجائحة أكثر من المدن الأخرى كمالقة مثلا ، José Angel Tapia Garrido,Historia genéral de Alméria y su provencia,TomoIV ,Alméria musulmana,Editorial Cajal,Almeria1986, p265

[6] – ابن منظور ،لسان العرب ،دار المعارف ، القاهرة ، د–ت ، ص4751 .

[7] – ابن حجر العسقلاني، بدل الماعون في فضل الطاعون، تح:أ حمد عصام عبد القادر الكاتب ،دار العاصمة، ص 22 – ابن خاتمة ، تحصيل غرض القاصد نشر ضمن كتاب الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية لعبد الكريم الخطابي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ص 161 – Biraben Jean Noel et Le Goff Jacques, La peste dans le moyen âge Annales. Economies, Sociétés, Civilisations, 24 e année , n°6-1969, p1485

[8] – الحسين بولقطيب ، جوائح وأوبئة المغرب في عهد الموحدين ،منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص22 – حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضري، ط 2 ،ج2، دار الغرب الإسلامي،بيروت ، 1983، ص68– Le Goff ,op cit ,p1492,1493– Carpentier Elisabeth , Autour de la peste noire , Famines et épidémies dans l'histoire du XIV siècle , A. E.S.C n°17 ,1962, p 1082

[9] – سُمي بهذا الاسم نسبة إلى الإمبراطور البيزنطي جوستنيان ، وقد ضرب هذا الطاعون عاصمته القسطنطينية سنة 541م، ينظر: op, Le Goff cit ,p 1492.– محمد الأمين البزاز ، الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة والوسطى ، مجلة المناهل ،إصدار وزارة الثقافة المغربية ، عدد69–70– سنة 2004، ص296.

[10]– ابن خلدون ، العبر ، ج 1 ، ص42 .

[11] – ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج3، ص79 .

[12] – ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج1، ص9 و 419 .

[13] - Dols Michael Walter , The black death in the middle east , princeston university press,New jersey,1977 .

[14] - Le Goff , op cit , p1485-Angel garrido , op cit , p 265.

[15] – ابن ثغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج10، ص184 .

[16] – عبد العزيز السيد سالم ، تاريخ المرية ، ص103 .

[17] – ابن ثغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج10، ص 159.

[18] – بلاد الصين في اللسان العجمي ، ابن خاتمة ، تحصيل ،ج1، ص173.

[19] - Yves Renouard ,Conséquences et intérêt démographiques de La peste noire de 1348 in population ,n° 03, 1948, p460 - Jean Favier , Orvieto et la peste noire , journal des savants , 1963, n 04 ,p271.

[20]– ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 1، ص 42،43 .

[21] – ابن ثغري بردي ،المصدر السابق، ج10، ص156 .

[22] – السخاوي ،الذيل التام على دول الإسلام،ج1،ص97 . ابن ثغري بردي ، ج10 ،ص184.

[23]– بولقطيب ، المرجع السابق ، ص 51 – السيد سالم ، المرجع السابق ، ص 97– Yves Renouard , op cit, p 460 33.

[24] - Angel garrido , op cit , p 265. – Charles Verlinden , La grande peste de 1348 en Espagne , contribution a l'étude de ces conséquences économiques et sociales, revue belge de philologie et d'histoire , tome 17 , fasc 1-2, 1938, p 117.

[25] – النباهي ، المرقبة ، ص 148.

[26] – ابن ثغري بردي ، المصدر السابق ، ج10،ص 159 – قارن الخريطة في : Carpentier, op cit , p1063

[27] – بدأت التآليف في مجال الأراجيز عند الأندلسيين بعد أن أسهموا في تراجم المؤلفات اليونانية ومن أبرزهم سعيد بن إبراهيم بن حدير (ت 342هـ) ،ينظر : ابن عبد الملك المراكشي ،الذيل والتكملة ، س4، ص25 .

[28] – كان لسان الدين ابن الخطيب مصابا بالأرق حيث يقول في "الوصول لحفظ الصحة " : "...العجب في مرجعي تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب ،لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي ..." ينظر : ابن الخطيب ،الوصول لحفظ الصحة والأصول، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط ، خط أندلسي 200 ورقة ، مسطرة : 16 ، مقاس : 230 / 180، مسجل برقم : 652 د ، وجه رقم 3– عبد الكريم أبو شوريب ، مساهمات الطبيب الأندلسي ابن الخطيب في مجال علم دراسة الأوبئة ،أبحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العرب ، معهد الثراث العلمي العربي ، 1986 اللاذقية ، ص166 .

[29]– نفسه ، ص169 .

[30] – ابن خاتمة، تحصيل، ص173 – محمد العربي الخطابي ، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، دراسة وتراجم ونصوص ، ط 1 ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ، 1988، ج2، ص161– STEPHANE BARRY , NORBERT GUALDE , La

peste noire dans l'occident chrétien et musulman 1347-1353, CBMH/BCHM, Volume 25, 2 , 2008 , p466.

أما ترجمة ابن خاتمة في : ابن الأحمر، نثير الجمان، ص 156 – ابن الخطيب، الإحاطة،ج 1، ص 239– الكتيبة ، ص 239– أوصاف، ص69– التمبكتي، المصدر السابق،ج1، ص 98– ابن القاضي، ذرة ،ج1 ،ص 40– مخلوف ، شجرة النور ، ص 229 .

[31] – النباهي ، المرقبة ، ص 148.

[32] – ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 42،43 – Yves Renouard , op cit, p464 ,op cit,p 113– Charles Verlinden .

[33] – كان من آثارها السياسية المباشرة تزايد وتيرة حملات الحروب الصليبية على الإسلامي عموما ، Yves Renouard , op cit, p464 – السيد سالم ، المرجع السابق، ص 104 .

[34] – ابن ثغري بردي ،المصدر السابق، ج10، ص156 .

[35]- Yves Renouard , op cit, p461– Lucien Febvre ,L'histoire médicale , A.E.S.C, n° 4, 1949, p 102 ,103.

[36] – يواجه الباحث في التاريخ الديموغرافي للأندلس صعوبات جمة في مجال تقديرات السكان ، وأن تقديم أي رقم ولو كان تقريبيا يبقى مُجازفة ؛ ومن ثمّ فإن محاولتنا لإبداء ملاحظات عن ديموغرافيا الأندلس تبقى عامة في تلك الفترة والمتأثرة بعوامل عدة . وبالتالي فإن الاعتماد على الدراسات والمصادر في سبيل تقصي ذلك يبقى مرهونا بمدى مصداقيتها وموضوعيتها، ينظر: ابن الخطيب، المصدر السابق،ج1،ص124– ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، س 4، تح:حمزة أحمد عباس،ط 1، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002 ، ص230– La fuenté y Alcantara, Historia de Granada , Editorial Universidad de Granada ,1993, t III, p99- Rachel Arie , l'Espagne musulmane , p 338. Ladero Quesada M.A, Datos démograficos sobre los musulmanes de Granada y castillaen el Rachel Arié , –siglo XV, en anuario de studios médiévales, vol 8, ano 1972-1973;pp481,487. Aperçus sur le royaume de Grenade ,Quaderni di studio arabi ,Casa Editrice Torres Balbas, "Extension y démografia de ,–Armena ,Universita de Veniza ,venezia 1986,p64 - Bernard –las cuidades hispanomusulmanas", en Studia Islamica, vol 3, ano 1955, p p 35,59- "Vincent , op cit , p161,163 .

علي حسين الشطشاط، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء ،القاهرة 2001،ص57 –عمر عبد السلام تدمري،"مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس"، مجلة التاريخ العربي،ع17،ص 111 وما يليها.

[37]– السيد سالم ، المرجع السابق، ص 104- Charles Verlinden, op cit, p 117

[38] - María Isabel Calero Secall ,La peste en Malaga , según el malagueño al-Nubahi , Homenaje al Prof, Jacinto Bosch Villa , vol 1 , 1991 , pp 57-72 .

[39] – ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3، ص226 .

[40] – ابن حجر، الدرر،ج1 ،ص219 .

[41] – ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج2، ص266 .

[42] – التمبكتي، نيل ،ج1، ص 201– ابن القاضي، درة،ج3، ص 292 – المقري، نفح،ج5، ص543 .

[43] – ابن القاضي ، درة ، ج3، ص330، تر : 1446.

[44] – ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ،ص 184.

[45] – المقري، أزهار،ج2، ص301– النباهي، المرقبة ،ص 114– طاهر توات ، ابن خميس شعره ونثره، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،ص 41 .

[46] – وجد تباين في تاريخ وفاته بين المصادر ،ينظر : ابن الخطيب، الكتيبة ، ص 88 – وكذا الإحاطة ،ج2 ،ص433 – السيوطي، بغية، ج1، ص 143– ابن حجر، الدرر، ج3، ص484 – المقري ، نفح، ج6 ،ص 226 .

[47] – ابن الخطيب ، الإحاطة،ج2، ص143 – النباهي ، المرقبة ، ص164 .

[48] – النباهي ، المصدر نفسه ، ص155 .

[49] – نفسه ، ص159 .

[50] – ابن حجر ، الدرر ،ج 1، ص 183 ،184،تر: 473 – Miguel Jiménez Puertas , , Linajes y poder en la loja islamica, De Los Banu JĀLID a Los Alatares (Siglos VIII-XV) , Fundacion IBN AL-JATIB de estudios y cooperacion cultural, p 165.

[51]– ابن الخطيب ،الإحاطة،ج 4 ، ص 147 – ابن القاضي، درة، ج 3 ، ص234 ، تر 1254–المقري، نفح، ج 5 ،ص434 – التمبكتي ،نيل،ج1 ، ص367 .

[52] – ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج3، ص235 . التمبكتي ، نيل، ج2، ص205.

[53]– ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج3، ص234.

[54] – يعرف ابن خلدون هذا العلم بأنه علم ينظر في بدن الإنسان من حيث يمرض و يصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد لن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، ينظر : ابن خلدون ، المقدمة ،تح: عبد السلام الشدادي ، خزانة ابن خلدون ،ط1، الدار البيضاء 2005،ج5، ص162 . وقد كان أول كتاب تأليف في علم الطب لعبد الملك بن حبيب السلمي الإلبيري (238هـ)، ينظر :محمد العربي الخطابي ، المرجع السابق ،ج1، ص 39 وما يليها .ومؤلفه هو المختصر في الطب ، خط أندلسي واضح ، ورقة 1/ب إلى 46/ب ، مسطرة : مختلفة ، مقاس : 195 / 140 ، مسجل برقم : 1442 د .

[55] – ابن عبد الملك المراكشي ،المصدر السابق ، س5، ق1، ص252،251 – س4، ص25 – أحمد الطاهري ،الطب بالأندلس بين الحكمة و التجريب ، ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية – تيارات الفكر في المغرب والأندلس الروافد والمعطيات ، أبريل 1993،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية 5، تطوان، ص 370 ،371 .

[56] – هناك جملة من الأحاديث النبوية يعمل بها المسلمون في حال حدوث الوباء، ينظر مثلا: ابن حجر، بذل الماعون، ص 30 – وعن دورهم في صد الوباء و طرقهم في ذلك ينظر : Dols ,op cit , chapitre4

[57]– ابن خلدون ، المقدمة ،ج5، ص32 .

[58] – جاء في شعر لسان الدين ابن الخطيب على لسان والده : الطب والشعر والكتابة سماتنا في بني النجابة ، ينظر :المقري، النفح ، ج5، ص 16.عن مؤلفاته الطبية ينظر : أبو شويرب ، المرجع السابق، ص165 .

[59] – توجد نسخة منه في مكتبة الاسكوريال تحت رقم :1785 ، (f39 r°)5 ،خط أندلسي ،18 سطر ، بدايته : لما كان على الشيء فرعا من تصوره وجب لنا أن نبين فرعا من هذا المرض .

[60] – توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بالرباط ،خط أندلسي حسن ،ق 16 ، مصورة عن نسخة الاسكوريال ،مقدمته : الحمد لله المحمود على المحبوب و المكروه...فإن بعض أصدقائي ..سألوني عن حقيقة هذا الطاعون في المرية ،تحت رقم :د4505، ميكروفيلم 1212– في حين اعتمدنا على دراسة محققة ضمن كتاب الطب والأطباء للخطابي .

[61] – ترجمته في : ابن الخطيب، الإحاطة ،ج2 ، ص170 – النباهي ، المرقبة، ص154– ابن الخطيب ، الكتيبة، ص 119 .

[62] – توجد نسخة من المخطوط عند الأستاذ محمد المنوني بالرباط ، تحت رقم 455/1، 22ص ،21 سطر، 20.5x16 سم .

[63] - Millas A. Cristina, Tres opusculos inéditos sobre la peste en un manuscruto magrebi, Anaquel de Estudios arabes ,n°3, 1992 ,p 185,186.

[64] – ابن الخطيب ، الإحاطة، ج3 ، ص 177 – Ahmed Mujtar Al-Abbadi , El reino de Granada en la época de Muhammad 5 , Vida Social y Cultural , Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islámicos, 5 1957, p163.

[65] - Renaud, Henri-Paul-Joseph,Un chirurgien musulman du royaume de Grenade Muhammad al-saquri, Hespéris , Institut des hautes études marocaines ,T. 33, 1946 , p 31-64 .

[66] - Rachel Arie, Etudes sur la civilisation de l'Espagne musulmane, leiden , E.J . Brill,1990, in n°8,chapitre 4 - Rachel Arie , Un opuscule grenadin sur la peste noire de 1348 : la Nasiha de Muhammad al-saquri , Boletín de la Asociación Española de orientalistas, N° 3 , 1967 ,P189-199.

[67] – في الإحاطة وفاته في 764هـ ، ينظر للمقارنة: ابن الخطيب، الإحاطة، ج2 ،ص 364– ابن حجر، الدرر ،ج2 ،ص

68 – السيوطي ،بغية ، ج1، ص221– ابن القاضي ، درة ،ج2 ،ص76 ، تر: 519 – التمبكتي ، نيل ،ج2، ص43 .